ومضة من حياة

عزّه شرارة بيضون

كنت لم أبلغ السادسة بعد عندما روت لي جدّتي لأمي حكاية قايين وهابيل. وما زلت أذكر إحساساً قويّاً امتلكني بأن ظلماً وقع على قايين لأن الله فضّل عليه هابيلاً، وتعاطفاً جارفاً معه للتمييز الذي لحق به؛ وأذكر، أيضاً، توبيخ جدّتي لاعتراضي على ذلك التفضيل. وزارني، في تلك الليلة، كابوس تكرر في ليال متتالية؛ وفيه أنه حين جاء دوري في امتحان يوم الحشر، أمسكني شيخ مهيب بين ذراعيه، ودحرجني من أعلى قمّة في جبل مغطّى بالثلوج والضباب ليتلقّفني، في أسفله، الشيطان نفسه! ويبدو أن هذا الكابوس، الذي كان يوقظني مرتعدة، أخفق في زجري، فلم أرتدع. بل إن انتفاضتي على ما بدا لي يومها اعتباطاً في التمييز والتفضيل شكّلت، ربما، نموذجاً لتمرّدي اللاحق على أشكال الظلم، وعلى "دونيتي" المفترضة كأنثى، والتي بدأت أتلمّس وجوب القبول بها قدراً نهائياً في ثنايا الخطاب المتداول حول بنات جنسي.

ويبدو أن تفوّقي المدرسي وبروزي في المدارس المختلطة التي أمضيت فيها معظم مراحل دراستي كان تجريباً واقعياً لانتفاء دونية أنثويتي المفترضة. لكن ذلك كان محيّراً لي ولمن حولي. فالرسائل التي كنت أتلقّاها من الآخرين كانت تحرّض، ضمناً، على الاختيار: إما متفوّقة (وخاصّة على "الصبيان")، أو....أنثى. وأنا كنت أشعر بأنني الاثنين معاً: كنت أعيش أحلام البنات كلّها والطموح الجامح للفعل والمغامرة كلّه.

وعيش الحالتين لم يكن، بالطبع، بدون مآزم وآلام. ففي فوران الإقبال على الحياة، وفي التوْق الكبير إلى اعتراف الجنس الآخر بي، بدا جليّاً أن "الصبيان" يحبون البنات "البنات"؛ أي أولئك اللواتي طوّرن مواهب اللعب المتجاذب: قوّة في الضعف، وجاذبية في اللامبالاة، وحيوية في السلبية، وتفوّق في التكاسل، وثقة في الانتظار، وثرثرة في صمت عنيد..... وهو ما بدا لي، يومها، مشروعاً بائساً ل"لوجود". إذ كيف "توجد" من تنتظر وتضعف وتتلقّى وتصمت وتتكاسل ولا تبالي؟ لم أعقل ضرورة التخلّي عن "وجود"، تيسّر لي أن أتعرّف على إثارته، لأن من بعض شروط الاعتراف بأنني أنثى كان القبول بحق الذكور باحتكار ذلك "الوجود"؟

وبقيت مسوّغات امتياز الذكور ل"الوجود" غير مُقنعة. وأثارت احساساتي باعتباطية ذلك الامتياز ثورتي العتيقة وتوّقي للعدل،(لماذا فضّل الله هابيلاً على قايين؟). وأيقنت أنني من سليلة قايين: فقد ورثت عنه التمرّد على قدري، فكان عليّ أن "أوسّعه"، وأن "أتوه في الأرض" بحثاً عن ذاتي بعد أن رفضت قدر الهويّة – الإرث المرسوم سلفاً- الثانية في الوجود، (في رواية نسائية لقايين وهابيل، هل هناك ضرورة لقتل هابيل؟ ولماذا تضيق دنيا الله الواسعة بالاثنين معاً؟)

ولا أدّعي أنني ابتكرت هويتي تماماً. فأنا ثالثة في سلسلة من نساء فيهن بعض ملامحها: جدّتي لأمي كانت مدرّسة لثلاثين سنة، وأمّي لأربعين. والأغلب أن نمط

"وجودهما" حسم الجدل المتضمّن في الرسائل المتناقضة التي كنت أتلقّاها من الخارج حول هويتي؛ فهما –جدتي وأمي- نموذجان من نساء أبهتت في تألّق أندروجينيتها حجّة النموذج النسائي "الصحيح"، وقزّمت في وجداني احتمال التماهي به.

ثم ما لبثت أن التقيت بشبيهاتي من النساء في مسار دراستي الجامعية، وفي مهنتي، وفي انخراطي في العمل السياسي والثقافي. وهي لقاءات خففت من تغرّبي – بل تغرّبنا- وبعثت فيّ الاطمئنان بأن الواحدة منّا لم تكن فريدة في اختبارات الوجود وخياراته؛ كنا، نحن المتمرّدات على قدرنا، نتكاثر من رحم الثورات التي كانت تعصف بعالمنا معزّزة خيارات وجودنا ومفسحة في المجال أمام انطلاقنا في مسار ننشئ معالم مسالكه تباعاً؛

.... والتقيت، أيضاً، برجال متوثّبين للقاء ذاتيّات مغامِرة وباعِثة على المغامَرة لنستقرّ، متآلفين ومتنافرين معاً، في عالم "ما بعد الحداثة"- حضناً أعمّ لاستقبال فراداتنا، وحيث فراداتنا، نفسها، من بعض مكوّناته.

***

الدراسة الميدانية الأوّلى* التي نفّذتها كانت بحثاً عن ملامح الهوية النسائية في هذا الزمن ؛ وذلك في محاولة للبحث عن شرعية مسار شخصي كان مثيراً وباعثاً على القلق، في الوقت نفسه؛ وهو مسار لم يكن شائعاً، بل وصف في الأدبيات النفسية، وكما قدّر لي أن أكتشف لاحقاً، ب"غير السويّ"! ولعلّ اختيار موضوع دراستي تلك كان ومضة، استدعت انطلاق ذلك المسار، وكان أيضاً كاشفاً لمسالكه بعدها.

دراستي الميدانية الأولى كانت احتفالاً، ربما، باختيار شخصي، وانتصاراً لاختبارات نسائية متشابهة، بل لعلّها كانت، أيضاً، "دعوة" للتماهي بنموذج لهويّة نسائية أندروجينية – حيث "الذكورة" فيها سندٌ ل"أنوثة" يسعها أن تكون فخورة بكينونتها ، وحيث ل"الأنوثة" فيها امتياز تدوير "الذكورة" والتعبير عنها بنكهات خاصّة بكل واحدة منّا وتوليفة حبلى باحتمالات حياة مثيرة.....نستحقّها .

*- "الهوية النسائية الجديدة: دراسة ميدانية في التنميط الجندري الرباعي لدى فئة من الشابات اللبنانيات"، رسالة دبلوم دراسات عليا، الجامعة اللبنانية، 1988.